كلية التربية للطفولة المبكرة
إدارة البحوث والنشر العلمي (المجلة العلمية)
=======

الاضطراب المشترك...بين الفهم والتفسير

إعـــداد

أ.د/ خالد النجار

أستاذ علم النفس

كلية التربية للطفولة المبكرة- جامعة القاهرة

{العدد الثالث والعشرون-الجزء الأول- أكتوبر ٢٠٢٢م}

مقدمـــــة:

الاضطراب ...حال طرفي من أحوال الإنسان، حال اضطربت فيه علاقة الأنا بالآخر بل واضطربت فيه صيغة الأنا للتعبير عن الوجود في العالم. ويتحدث "مصطفى زيور" مشيراً إلى أن مأساة الإنسان الأساسية ومصدر شقائه الأول أنه لا ينجح في الظفر بالنضج الصحيح إلا بمقدار، فالطفولة طور لا يتخطاه الإنسان إلا من حيث جسمه وعقله، أما مشاعره ووجدانه وانفعالاته فإنها تظل متصفة بشيء كثير من الطفولة، ففي النفس حنين مكتوم نحو مباهج الطفولة ويسرها، وفيها شقاء بهذا الحنين الذي لا سبيل لارتوائه، ولا يتحقق شفاء النفس وراحتها إلا بقدر ما يتاح للمرء من تطوير لميوله الطفلية تطويراً أصيلاً.

وما السواء والاضطراب في حياة الإنسان إلا تعبيراً عن ذلك التأرجح بين القبول والرفض من قبل الوالدين اللذين يمنحان الوليد شرعية الوجود في العالم.

ويظل الحد الفاصل بين السلوك السوي وغير السوي أمراً يصعب تحديده بشكل قاطع؛ ذلك لأنه يتأرجح بين أوضاع ومعايير ومحددات ثقافية واجتماعية مختلفة، ومن ثم فإن سلوك أي فرد سوي أو غير سوي يرتبط بدرجة كبيرة بحدود ثقافته. وفي الحين الذي بدأت فيه الاضطرابات تحظى باهتمام كبير تظل الإشكالية الجوهرية هي البحث والاتفاق على محكات تشخيصية لهذه لاضطرابات Disorders بل وتطوير هذه المحكات؛ لكي تعين على فهم أنماط اختلال الأداء الوظيفي من حيث مظاهره وأسبابه وعلاجه والوقاية منه.

ولعل أكثر الإشكاليات المطروحة عند دراسة الاضطرابات السلوكية في مرحلة الطفولة المبكرة والتي يمكن اختزالها في النقاط الاتية:

١-أن جميع الأطفال في هذه المرحلة أسوياء أو مضطربين يقومون بنفس السلوكيات تقريباً (مع مراعاة الشدة والتكرار)، فالصراخ ونوبات الغضب والنشاط الزائد والتشاجر والتبول والانسحاب جميعها سلوكيات يمكن توقعها من الأطفال الأسوياء شأنهم شأن الأطفال المضطربين وهو ما لم يتم الحديث عنه في التصنيفات العالمية للاضطرابات.

٢-أن كثيراً من الاضطرابات لدى الأطفال تعد جزءاً من نسيج وطبيعة وخصائص المرحلة العمرية كالكذب والسرقة.

٣-أن مصدر الشكوى في كثير من الاضطرابات لا يكون الطفل نفسه وإنما تكون الأسرة أو أحد أفرادها (الأب – الأم).

٤-أنه لا يجوز الفصل بين الاضطرابات لدى الأطفال وأساليب التنشئة الاجتماعية لهؤلاء الأطفال وبتعبير أدق أنه لا يجوز الفصل بين الاضطرابات لدى الأطفال والأسرة المنتجة للأطفال المضطربين.

٥-أنه حتى في أفضل الظروف التشخيصية يظل الموقف التشخيصي تقديري بالدرجة الأولى وخاصة في مراحل الطفولة المبكرة. (خالد النجار، ٢٠٢١: ١٢)

لا يخفى على كل مدقق ومتخصص في علم النفس حجم ما حققه من نجاح في فهم وتفسير لحالات الاضطراب في كل تباياتها وعبر كل المراحل العمرية، بينما لم يظفر بنفس القدر من النجاح في تقديم صورة واضحة عن السواء ومعطياته الإيجابية المؤدية اليه وهو الأمر الذي أدي الى ظهور ما يسمى بعلم النفس الإيجابي الذي بات يبحث في الانسان عن سبل تحقيق السواء والسعي نحو الاثمار والحياة الإيجابية الفاعلة والقدرة على التأثير في الواقع وبناء علاقات طيبة وإيجابية بين الأنا والآخر.

ولما كان موضوع علم النفس ومنطقه هو السلوك، فهذا العرض يؤكد على ان لكل سلوك رحمه الثقافي الذي يتغذى من خلاله، ولكل سلوك أب وأم عاشا في رحم لغة محملة بما يستحيل حصره من قيم وأفكار ومشاعر ومفاهيم، وهو الأمر الذي يجعلنا نرى السلوك السوي والمضطرب في سياق ثقافي وعصري وفقاً لمنظومة القيم التي تغذيه بغض النظر عن اتفاقنا معه او اختلافنا عليه، ومن هنا جاء طرح مفهوم الاضطراب المشترك الذي هو في جوهره الرحم او النسيج الذي يتغذى به وعليه ومنه السلوك المضطرب في اطار العلاقة بين الفرد وسياقه الثقافي والاجتماعي والنفسي.

أولاً: مفهوم الاضطراب المشترك (الطفل– الاسرة– المجتمع):

تعريف الاضطراب المشترك:

هو كل سلوك مضطرب (مصنف في الأدلة التشخيصية أو غير مصنف) يشارك في ممارسته أثنين او اكثر من الأطفال او الأشخاص وقد يكون السلوك المضطرب يمارس بشكل ثنائي او ثلاثي او متعدد وقد يكون السلوك شخصي او اجتماعي او جماعي او مجتمعي.

- الاضطراب المشترك رؤية مغايرة لعملية التشخيص في الادلة التشخيصية التي تقوم على التشخيص الفردي الاحادي.
- ان كثير من الممارسات السلوكية السلبية يصعب تصنيفها لعدم تضمينها في الادلة التشخيصية مثل الاستقواء/ التنمر في مقابل الضحية والتحرش والغش.
- ان كل الاضطرابات لا يمكن ان تكون سبباً ونتيجة في آن واحد لذلك فان الاضطراب المشترك يصف العلاقة المضطربة بين شخصين او اكثر ومن ثم فانه مفهوم قاصر على الاضطرابات الوظيفية فقط ولا تمتد او تصف الاضطرابات العضوية.
- ان جميع اساليب الرعاية الوالدية قد تكون من مسببات الاضطراب المشترك حينما نصف العلاقة بين الضارب والمضروب وكذلك بين الُمهمل والمهمل وبين المدلل والمدلل وبين المسيطر والخاضع وبين المذبذب والمتذبذب وبين المتسلط والتابع وبين الرافض والمرفوض.
- تشخيص الاضطراب المشترك على هذا النحو يعد بمثابة تغير كيفي للعملية التشخيصية للاضطرابات ويمهد طريقاً لعملية العلاج والارشاد النفسي.
- الاضطراب المشترك نقلة كيفية وانتقال ثوري من الرؤية الاحادية الى الرؤية الثنائية والمتعددة.

- ادماج المسبب للاضطراب ضمن عملية التشخيص يخلق حالة من الوعي بوجود الاضطراب والاشتراك فيه والمسؤلية عنه وان الارشاد والعلاج لابد ان يكون مشتركاً كذلك.
- وفي هذا السياق يمكن طرح رؤية اكثر اتساعاً من حدود النظرة الضيقة لمفهوم الاضطراب في ضوء الأدلة التشخيصية والتي تشير الى انه في حالة توافر عدد من الاعراض او الخصائص لدى طفل او فرد يمكن تشخيصه في ضوء هذه الاعراض والخصائص، بينما النظرة في مفهوم الاضطراب المشترك تذهب بعيداً عن هذا التصور المحدود والمقيد بصور وقوالب نمطية لا يمكن الخروج منها ولا النظر بعيداً عنها.
- يدفع التقيد بالأدلة التشخيصية الى صعوبة وجود اضطراب خارج اطار النظر الى الفرد او الطفل الواحد فضلاً عن التقيد بمسميات الاضطرابات كما وردت نصاً في الأدلة التشخيصية، في حين يتبنى مفهوم الاضطراب المشترك تصور المحتويات المضطربة خارج حدود هذه النظرة الضيقة والتركيز على المحتويات المضطربة المتبادلة بين شخصين او اكثر والتي تأخذ اشكال سلوكية فردية وثنائية وثلاثية ومتعددة، بل وقد تأخذ شكلاً جماعياً ومجتمعياً لما يمثله الاضطراب من محتوى يمارسه العديد من الافراد او الأطفال، كأن يقوم مجموعة من الأطفال بممارسة الغش الجماعي في موقف اختباري وهنا ننظر الى الغش باعتباره سلوك منحرف يشارك فيه ويمارسه عدد من الأطفال بل ويمتد المشهد لنجد أستاذ المادة يساعد في تيسير عملية الغش بل وقد يشارك المراقب ورئيس لجنة الاختبار ورئيس الدور ومدير المدرسة في تيسير عملية الغش الجماعي التي تؤدي الى حصول اكبر عدد من الأطفال على الدرجات النهائية وتبدو المؤسسة من واقع نتائجها انها افضل مؤسسة تعليمية في حين انها مؤسسة تمارس سلوكيات منحرفة ومضطربة يشارك فيها معظم عناصر المؤسسة وقد شاهد المجتمع حادثة قيام أولياء أمور الأطفال بأحد المدارس

الذين قاموا بالاعتداء على مديرة المدرسة لأنها منعت الأولاد من ممارسة الغش الجماعي داخل الفصول وهو ما يشير الى ان حتى الإباء يدعمون ويشجعون قيام أولادهم بالغش ولا يجدون فيه أي سلوك مضطرب او منحرف وهنا يصبح هذا الاضطراب ....اضطراب مشترك.

- هذا الطرح يجعلنا امام تصنيف مغاير لمفهوم الاضطراب التقليدي حيث نجد انه اصبح ذا طابع مجتمعي وليس اسري او فردي، فالجرائم المجتمعية أصبحت من الأمور المثيرة للدهشة حيث تذبح الاناث في الشوارع تحت مسمى علاقات الحب ومعدلات الطلاق التي ترقى الى تسميتها بجائحة الطلاق التي تتجاوز نسب ومعدلات حدوثة الى ٨٠% من الزيجات التي تتم سنوياً ووسائل التواصل الاجتماعي التي أصبحت وسيلة للتنمر الالكتروني وظهور التطبيقات الالكترونية (التيك توك) التي تمارس من خلالها مختلف أنواع الانحرافات السلوكية والجنسية، كما يمكن ان نقول ان الاضطراب المشترك هو حالة مجتمعية كالتحرش الجماعي الذي يشارك فيه شخصين او اكثر ويمتد لمختلف السلوكيات المنحرفة التي يمكن ان تمارس بشكل جماعي كالسرقة التي يقوم بها عدد من الافراد ويكون لكل فرد دور مختلف مكمل للآخر المنحرف، ففرد يخطط واخر يقوم بالهجوم وثالث للدفاع ورابع للهروب وهكذا تتعدد الأدوار بتعدد المهام والأشخاص وجميعهم يمارسون سلوكاً يمكن ان نطلق عليه الاضطراب المشترك.
- التصور السابق يمتد لفهم وتفسير وتشخيص جميع انواع الانحرافات التي تمارس بشكل جماعي كتعاطي المخدرات او الاتجار بها (مكان للتعاطي يملكه شخص ومتعاطين وموردين للمواد المخدرة وعناصر حماية للمكان وعناصر مراقبة خارجية) او الدعارة او تجارة الاثار او جرائم النصب الالكتروني او الرشوة (راش – مرتشي) وغيرها من مختلف الجرائم التي يمارسها اشخاص يشاركون معا في ممارسة سلوك مضطرب هو الاضطراب المشترك.

- الأسرة هي العامل الأساسي في صنع سلوك الطفل بصيغة اجتماعية منذ نشأته الأولى وخلال مراحل نموه المختلفة التي تتولاهما الأسرة بالعناية والرعاية وتأثرها في توافقه النفسي أو سوء التوافق وكل ما يكتسبه الطفل من الأسرة من خبرات مؤلمة والناجمة عن أساليب خاطئة في التنشئة تظل راسخة في حياته حتى يكبر، وتؤدي به إلى اضطرابات نفسية وانفعالية واجتماعية في شخصيته مما تعرضه لبعض الأمراض النفسية التي تبعده عن حياة الأسوياء.
- تؤثر أيضاً العلاقات بين الوالدين على صحة الطفل النفسية من حيث خلق جواً يساعد على نمو الطفل إلى شخصية متكاملة متوازنة وحاجاته إلى الأمن النفسي وإلى توافقه النفسي بالإضافة إلى وجود اتجاهات انفعالية سوية في الأسرة تساعد على الاستقرار وصحة نفسية لكافة الأفراد، وأن الخلافات والنزاعات والمشكلات النفسية بين الوالدين يخلق جواً مضطرباً ويؤدي إلى ظهور أنماط سلوكية غير سوية لدى الطفل كالغيرة والعدوانية والأنانية وعدم الاتزان الانفعالي ويهدد استقرار الجو الأسري والصحة النفسية لكافة أفراد الأسرة.
- كما تؤثر العلاقات بين الوالدين والطفل على صحته النفسية وبين الأخوة على الصحة النفسية من خلال تكوين العلاقات والاتجاهات المملؤة بالحب والقبول والثقة التي تساعد الطفل في أن ينمو إلى شخص يحب غيره ويتقبل الآخرين ويثق فيهم، وخلق جو من الألفة والتعاون بين الأخوة بعضهم البعض وتؤدي إلى النمو النفسي السليم للطفل.
- الأسرة المنتجة للاضطراب فرض يطرحه بعض علماء النفس والأطباء النفسيون معاً، بعد أن اكتشفوا – من خلال الدراسة والعلاج – الدور الكبير الذي تلعبه الأسرة في اضطراب الفرد، وهم بذلك يعطون لبنية الأسرة ولظروفها الاقتصادية والاجتماعية بصفة عامة ثقلاً خاصاً في توفير الصحة أو نشأة الاضطراب.

- فكرة الأسرة المنتجة للاضطراب يقوم على أساس أن هناك بعض الأسر – بحكم بنيتها – أسر غير سوية، ويفصح عامل الاضطراب في الأسرة عن نفسه من خلال أحد الأبناء، وعادة ما يكون هذا الابن أكثر الأبناء تهيؤاً للإصابة بالاضطراب، فالاضطراب إذن طبقاً لهذا الفرض ليس اضطراب فرد، ولكنه اضطراب أسرة، أفصح عن نفسه من خلال أضعف الحلقات في الأسرة، وهو الطفل الأكثر تهيؤاً للاضطراب، ويحدث في مناخ الأسرة المنتجة للاضطراب بعض العمليات المرضية، وهي التي تعجل بظهور الأعراض لدى الطفل المضطرب، ومن ثم فقد تكون العلاقات داخل الاسرة ساحة للممارسة المودة والرحمة أو قد تكون ساحة لممارسة كل أشكال الاضطراب المشترك.

- قد تستخدم جميع أساليب الرعاية الوالدية كمسببات لحدوث الاضطراب المشترك لدى الأطفال، فالطفل الذي يتعرض للعقاب والضرب المتكرر يعكس عجز الاب القائم بالضرب عن إيجاد اساليب تواصل سوية تتيح الحوار والتواصل السوي بين الطفل والوالدين فيلعب الاب دور الضارب ويلعب الطفل دور المضروب ويكون الضرب هنا هو ساحة لممارسة الاضطراب المشترك، وقد يؤدي الضرب لأحد الأطفال باللجوء الى التهتهة وأخر يتجه الى التبول اللاإرادي وثالث يصبح منطويا وينسحب من جميع العلاقات الاجتماعية، بينما نجد طفلاً أخر يصبح عدوانياً حيث تتحول كل طاقاته الى محاولة تدمير العالم الخارجي، لذلك فالعقاب او النبذ او الإهمال او حتى التدليل قد يكون احد مسببات حدوث الاضطرابات السلوكية لدى الأطفال ويكون أيضا هو ساحة لممارسة الاضطراب المشترك بين الطفل ووالديه او احد الوالدين، ومن هنا جاء القول ان وراء كل طفل مضطرب شخص أكثر اضطراباً يدفعه الى دائرة الاضطراب.

ثانياً: الاضطراب المشترك واستلهام نماذج من التراث (الف ليلة وليلة وقصة شهريار وشهرزاد):

لا أدرى أي عبقرية وجدانية أفرزت وأدارت هذه العلاقة الخالدة "الأنا–أنت" التقاءاً وأنساً وصراعاً.. رحلة شفاء وعلاج استمرت ألف يوم وليلة جسدت أروع وأعظم صور التحدي في هذا الوجود.. شهرزاد تقبل التحدي وتسعى إليه وتطلبه بل وتخاطر بالدخول في صراع حتى الموت من أجل البقاء.. صراع بين الوجود والعدم، بين الحضور والغياب، بين السيد والعبد، بين الحياة والموت.. ويكون التحدي لشهرزاد.. إما أن تعيش أو أن تكون فداءً لبنات جنسها.

[١] الخيانة (كنموذج للاضطراب المشترك):

يكتشف شاة زمان خيانة زوجته مع عبد أسود (اضطراب مشترك)، فيهرع إلى أخيه شهريار لنجدته أو بالأحرى لكي يقوده إلى قدره المماثل، فيكتشف شهريار أن زوجته تخونه مع عشرين عبد أسود في ساحة القصر وبستانه (اضطراب مشترك خيانة وجنس جماعي)، وهو ما جاء في النص "ولم يزالوا في عبث وفجور حتى ولى النهار" وهكذا تتصاعد حدود الخيانة على نحو صارخ متجاوزة حدود الواقع والمنطق في صورة جامحة تعبر عن القدرة المطلقة للمرأة إذا ما أرادت أن تخون.. وهنا استحكمت حلقات الأزمة وتجاوزت حدود القدرة على مواجهتها، فيقرر شهريار وشاه زمان أن يرحلا (الهروب من المشكلة كاضطراب مشترك بدلاً من المواجهة) إلى حال سبيلهما بحثاً عن موت يكون خير من الحياة كما عرفوها.

[٢] المارد "الجنى":

طال السفر أياماً وليالي معلناً هروباً انسحابياً للأخوين المجروحين – شهريار وشاه زمان – حتى وصلا إلى شجرة تطل على عين ماء بجانب البحر المالح، فيجلسان ناشدين الراحة.. وإذ هما جالسين ينشق البحر هائجاً ومائجاً عن مارد جنى عملاق تصل قامته إلى السماء.. وعلى رأسه صندوق نعرف بعدها أن بداخل الصندوق الذي وضع عليه سبعة أقفال علبة عليها أيضاً سبعة أقفال، بداخلها فتاة عروسة جميلة خطفها الجنى ليلة عرسها.. وإذا بالمارد الجنى يطلق سراح الفتاة للحظات ثم يطلب منها أن ينام على ركبتها

وما أن ينام حتى تنقلب الصورة من نقيض إلى نقيض، فها هي الأسيرة حبيسة الأقفال السبعة تكشف عن وجه آخر، حيث تقوم بتهديد الرجلين "شهريار وشاه زمان" بالامتثال لأمرها، وتقوم باغتصاب الرجلين تحت تهديد القتل، إذ أنها سوف توقظ المارد الجنى ليفتك بهما (الاضطراب المشترك بالاستقواء بالجني وكذلك فعل الاغتصاب من أمراه لرجلين)، ولا تكتفى بذلك ولكنها تأخذ من كل منهما خاتمه وتخرج علبة نعرف أن فيها أكثر من ثلاثمائة وخمسون خاتماً.. وهكذا نرى ما تنطوي عليه صورة المارد الذي يقبع بداخل المرأة الأسيرة.. ويحدثنا النص عن أن المرأة إذا أرادت أن تخون فلن يحول بينها وبين رغبتها حتى ذلك المارد الجنى العملاق الذي يصل إلى عنان السماء.. وهذا هو الدرس الثالث الذي تلقاه شهريار بعد خيانة زوجة أخيه ثم زوجته ثم خيانة المارد "الجنى".

[٣] الانتقام وشريعة القتل (نموذج للاضطراب المشترك):

هنا يأتي الإنكار للحلول الهروبية والانسحابية ويجد شهريار نفسه مجبراً على الاعتراف والاستسلام الكامل أمام كيد النساء، وهو ما دفع شهريار إلى الانتقام.. كلما تزوج بكراً يدخل عليها ويقتلها في ليلتها تعبيراً عن المثل الدارج "يتغدى بيها قبل ما تتعشى بيه".. نعم أراد أن يؤكد على أن قانونه وسلطته وشريعته الدموية سوف تجعله أكثر تفوقاً من المارد الجنى، بل وأن ينجح فيما فشل فيه هذا الجنى.. ويستمر الحال ثلاث سنوات قتل خلالها ١٠٩٥ ضحية حتى لم يبق في المدينة فتاة في سن الزواج سوى بنت الوزير "شهرزاد" والتي تجمع بالإضافة إلى جمالها وبهاءها أنها قرأت ألف كتاب في السير والأخبار والأحداث.. وهكذا نعرف أننا نواجه نمطاً جديداً وفريداً من النساء.. أي لم يعد الأمر مجرد "أنثى" تطفئ شبقاً وتشبع شهوة، بل إنها النموذج العارف أو القادر على المعرفة والتي ستفتح باباً للشفاء.

هنا تتجلى الصورة الأنثوية النقيضة، العارفة، الطيبة، المداوية، والأم الحنونة والتي كان فيها ضياع شهريار وفيها أيضاً إعادة ميلاده تحقيقاً للتعبير الدارج "وداوني بالتي كانت هي الداء".

[٤] حكاية الديك والكلب:

يدرك الوزير الأب (والد شهرزاد) أنه يقدم ابنته إلى المذبح.. تأخذه الشفقة والخشية عليها.. فنجده يقدم لها نصيحته في شكل حكاية.. ربما كانت هي أحد مفاتيح

الشفاء.. ويحكى الأب حكاية رجل آتاه الله القدرة على معرفة لغة الطير والحيوان وفى أحد الأيام كان يجالس زوجته فسمع حديث دار بين الحمار والثور مؤداه أن الثور كان يشكو من كثرة الأعباء والعمل طوال اليوم، فنصحه الحمار بالتمارض والامتناع عن الأكل، ولما حدث هذا بالفعل كان من الطبيعي أن تنتقل الأعباء والأعمال من الثور المتمارض إلى الحمار الذي قدم النصيحة حتى ندم عليها أشد الندم وبات يتوسل إلى الثور لكي يأكل ويعود إلى العمل.. وهنا ما كان من الرجل حينما سمع هذا الحديث أن ضحك بشدة دون أن تدري زوجته عن سبب ضحكة.. وأرادت الزوجة أن تعرف سبب كل هذا الضحك.. فيقول لها زوجها "شيء رأيته وسمعته ولا أقدر أن أبوح به فأموت".. ولكن الزوجة لا تأبه بذلك وتصر وتلح في معرفة سبب الضحك حتى لو أدى ذلك إلى موت الزوج، وتواصل الزوجة إلحاحها حتى تغلبت على زوجها حتى أن الرجل أحضر أولاده وأرسل في طلب القاضي والشهود وأراد أن يوصى بماله ثم يبوح لها بالسر ويموت لأنه كان يحبها محبة عظيمة ولأنها بنت عمه وأم أولاده.

وهكذا تعلن الحكاية التي يرويها الأب لابنته أن الله خص الرجل بمعرفة وقدرة لو باح بها للمرأة لكان الموت جزاؤه.. فهي إذن المعرفة التي يسيطر بها العارف على ما يعرف.. وإذ يتأهب الرجل ويرضى بالموت استسلاماً لإلحاح الزوجة ويذهب إلى دار الدواب لكي يتوضأ، فإذا به يسمع حديث طرفاه الديك والكلب، يقول فيه الديك للكلب: "والله إن صاحبنا رجل قليل العقل، فأنا لي خمسون زوجة، أرضى هذه وأغضب هذه وهو ما له إلا زوجة واحدة ولا يعرف صلاح أمره، فما له إلا أن يأخذ غصناً من عيدان التوت ثم يدخل إلى حجرتها وينهال عليها ضرباً حتى تموت أو تتوب ولا تعود تسأله عن شيء". وهذا ما فعله الرجل بزوجته حتى تابت وصلح أمرها.

ويقول الوزير الأب لابنته "شهرزاد": ربما فعل بك الملك مثلما فعل التاجر بزوجته وهو ما تحدثنا به هذه الحكاية الذكورية الأبوية معاً.. إذا تسوق التحذير والتخويف والتعليم للمرأة عن موقعها من عالم الرجل، ذلك العالم الذي لا قبل لها بفهمه ولا قدرة لها على السيطرة عليه.. وتعرف شهرزاد أنها لا قبل لها بتحدي بطش السلطة الذكورية وعليها أن تتخذ من الوجود الراغب لها والساعي إليها سبيلاً للنجاة وطوقاً لها ولبنات جنسها.

[٥] الشفاء والتداوي:

دوماً كان رضا الإنسان الحقيقي في سوء الفهم وهو ما صار إليه حال شهريار إذ صارت المرأة بالنسبة إليه جسداً وبكارة يفضها غلاً وانتقاماً وتشفياً.. حيث تعطلت قدرته على إقامة علاقة إنسانية واستحال عليه فعل المؤانسة..

ولذلك كان ذلك الاستدعاء العبقري لصورة "شهرزاد".. صورة أنثوية للأم الطيبة وصورة نرجسية للشق الأنثوي من الذات الذكورية.. فكانت شهرزاد وكان دورها الفريد، فقد جمعت ألف كتاب تعبيراً عن حكمة ورؤية وتبصر، بل وأنها هي التي تنذر نفسها وتخاطر بحياتها من أجل أن تكون سبباً في خلاص بنات جنسها من بطش السلطة الذكورية، وقد كان سبيل شهرزاد هو أنها أدركت البعد الإنساني، الأنس والمؤانسة، بعد النرجسية من حيث هي عثور الإنسان على نفسه في غيره وعثوره على غيره في نفسه، واستطاعت شهرزاد تحقيق إنجازها ومسعاها بالكلمة وبالحكاية وبالقصة، فكانت وبحق الطبيب المداوي والمعلم الحكيم القادر والعارف والمسيطر، استطاعت أن تكتب لأنوثتها الخلود وأقامت الدليل على أن المعلم الأول "الأم" الراوية والتي تكون بالنسبة لوليدها مرآة تجلو له غوامض عالمه وتفتح له باباً للأمل في إعادة بناء هذا العالم، بل وترويض مكامن الخطر فيه وبإيجاز شديد استطاعت بأنوثتها أن تعيد للذكورة إنسانيتها، استطاعت أن تقيم حواراً وتواصلاً مع سلطة ذكورية فقدت ثقتها في هذا العالم المتمثل في الآخر ثم في الذات. (فرج أحمد، ١٩٩٣) (فريال محمد،١٩٨٤) (احمد طاهر،١٩٨٤)

نعم.. كانت بحدس الأنثى الخالد طبيباً وحكيماً مداوياً.. كلماتها ترياق لكل جنون.. وحبها احتواءً لكل بطش وتمرد.. وفى أنوثتها خطاباً بليغاً يحدث بالفردوس المفقود – استطاعت عبر رحلة علاج دامت ألف ليلة أن تنتقل بهذا الجدل الدموي والعبثي معاً (التحول من الاضطراب المشترك الى السعي نحو السواء المشترك).. إلى أشكال أخرى للجدل، جدل الأم – الابن، فكانت أمومة حانية صادقة ثم جدل المرأة– الرجل ثم جدل الزوجة – الزوج محققة بذلك أروع وأعظم صورة للأنثى المانحة لمشروعية الوجود القائم على العلاقة الجدلية بين "الأنا–أنت" أنساً ومؤانسة تتجاوز أسر النرجسية المرضية وتحرراً من عبودية العلاقات المرضية التي تجسد مفهوم الاضطراب المشترك.

المراجع

- احمد طاهر.(١٩٨٤). قراءة لغوية في الف ليلة وليلة. النقد الادبي، ٦١-٦٦.
- خالد النجار.(٢٠٢١). الاضطراب المشترك رؤية ومدخل جديد لتشخيص الاضطرابات لدى الأطفال. الإسكندرية: مؤسسة حورس الدولية للنشر.
- فرج احمد.(١٩٩٣). التحليل النفسي والف ليلة وليلة. مجلة فصول،٤، ٢٣-٣١.
- فريال محمد.(١٩٨٤). في التحليل النفسي للأساطير: دراسة تطبيقية لنماذج مختارة من الف ليلة وليلة. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة عين شمس.